الفصل الثالث

أثر السياق القرآني

فِي بيان تناسق مدلول المفردة القرآنية في اشتراكها اللفظي

المبحث الأول

المفردة القرآنية ومشتركاتها اللفظية

إنّ موضوع المفردة فِي القرآن موضوع واسع متشعب الأطراف متعدد المناحي وأنّ كُلّ مفردة وضعت وضعاً فنيّاً مقصوداً فِي مكانها المناسب يعرب عنه السياق ويبيّن دلالتها ومقصودها ويوضح جمال نسقها وترتيبها فيه(١).

ومعنى الكلمة فِي المعجم متعدد يتحدد بالسياق الذي يرد فيه، بسبب ما فِي السياق من قرائن تعين على التحديد، لا نعني به السياق اللغوي (الداخلي) وحده، بل جميع أنواع السياق، الذي يشترك فِي تحديد معنى الكلمة(٢).

فقد يتشابه تعبيران فِي القرآن الكريم مع شيء من الاختلاف فِي اللفظة وذلك لأغراض يقتضيها السياق والمقام فيكون كُلّ تعبير أنسب فِي مكانه يفضي إلى علائق دلالية وفنية واجتماعية بين هذه المعاني والسياق(٣).

ومن أمثلة أثر السياق فِي بيان مدلول ومعنى الكلمة القرآنية ما ورد فِي سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾(٤)، وَفِي

---

(١) ينظر: بلاغة الكلمة فِي التعبير القرآني: ٣، ٤.

(٢) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها: ٣١٦؛ وينظر: السياق والمعنى: ٥.

(٣) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١٤٠؛ وينظر: السياق والمعنى: ١٣٥.

(٤) سورة الأنعام، من الآية: ٩٩.

قوله تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾[1]، فذكر ﷻ في الآية الأولى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ وفي الآية الثانية: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾، مع إنّ الموضعين كما يبدو متشابهان، والآيتان في السورة نفسها، وذكر المفسرون أنَّ اشتبه وتشابه بمعنى واحد كاشترك وتشارك واستوى وتساوى ونحوها ممّا اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل[2]، والذي يظهر أنَّهما ليسا بمعنى واحد؛ وأنّ كُلّ لفظة اختصت بالموطن المناسب لها، والسياق هُوَ الذي حدد صيغة اللفظة في التعبير[3] وهذا التناسق العجيب في ترتيب الألفاظ يوضح أنَّ هذا القرآن من لدن حكيم خبير أبدع وأتمَّ وأعجزَ.

وبالنظر في سياق كُلّ من الآيتين يتضح الفرق بين التعبيرين، ففي سياق الآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته الباهرة في خلقه، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١٤١.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ١٩١/٤؛ وينظر: الكشاف: ٥٢٠/١.

(٣) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٨٠.

مُتَشَٰبِهٍۚ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

«وأمّا سياق الآية الأخرى، ففي بيان الأطعمة وما يحلله ويحرمه أهل الكفر افتراءً على الله وبيان عقائدهم الباطلة»[2].

قَالَ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ

(١) سورة الأنعام: ٩٥-٩٩.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٨١.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1].

وَقَدْ اتسمت الآيتان كلتيهما بسمات السياق الذي وردت فيه كُلّ آية منهما، فالآية الأولى فِي بيان قدرة الله وآياته، والأخرى فِي بيان ما يؤكل، من الفواكه والزرع، فكان كُلّ تعبير مناسباً لسياقه ومتناسقاً ومرتباً بحسب المقام الذي سيق إليه، فالأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمّل لإدراك حقيقة أمرها، فوضع ﴿مُشْتَبِهًا﴾ فِي السياق الدال على قدرته تعالى وآياته، وَفِي موضع الأمر بالنظر (انظروا إلى ثمره) دون الموضع الآخر ممّا ليس فِي هَذَا السياق، فكان كُلّ تعبير أنسب فِي سياقه الذي ورد فيه.

«أمّا قوله تعالى فِي الموضعين: ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ فنفي التشابه دون الاشتباه؛ لأنّ التشابه ينفي الاشتباه ونفي الاشتباه لا ينفي التشابه، وإيضاح ذَلِكَ إذا قلت: (هذان الشيئان غير متشابهين) فقد نفيت التشابه بينهما ونفيت الاشتباه من باب أولى، وذلك لأنّ الاشتباه إنّما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين، فإذا نفيت التشابه زال الالتباس والاشتباه»[2].

«أمّا إذا قلت: (هذان الشيئان غير مشتبهين) فقد نفيت الاشتباه وعدم التمييز بينهما، ولكنك لم تنف التشابه، فقد يكون بينهما تشابه لا يوقع فِي اللبس، فعلى هَذَا يمكن النوعان متشابهين فِي وجه من الوجوه، فأراد أن ينفي ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ وَهَذَا أدل على القدرة، فإن جعل الأشياء بعضها متشابه وبعضها مختلف أدل على القدرة من جعلها كلها متشابهة أو جعلها كلها مختلفة، والله أعلم»[3].

---

(١) سورة الأنعام: ١٣٦-١٤١.

(٢) ينظر: بلاغة الكلمة فِي التعبير القرآني: ٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ٨٥.

«وإن (اشتبه) أكثر ما يفيد فِي الالتباس والإشكال، وإن (تشابه) أكثر ما يفيد معنى التشابه بين الشيئين أو الأشياء المشاركة بينهما فِي معنى من المعاني سواء أدى ذَلِكَ إلى الالتباس أم لم يؤد»[1].

إنّ جودة النظم وحسن سياق النصوص أظهر تغير مجال الاستعمال للفظتي (مُشتبهاً) و(متشابهاً) فِي الآيتين، وبيّن بلاغة المعاني فِي التحوّل الدلالي (الانتقال الدلالي)، أي: انتقال دلالة اللفظ من قيمة دلالية معينة إلى قيمة أخرى؛ بسبب وجود علاقة لغوية بين المعنى الأول والمعنى الثاني فعلى هَذَا فإنّ عملية الصياغة إنّما هي محصلة ما يحدثه السياق من صور وأحاسيس وتناغم وتفاعل وترتيب ونسق ومجموعها يكون المقصود والمراد من معنى الآيات الذي أظهره أثر السياق القرآني في جمالية النسق القرآني وبيان هذا التقسيم والترتيب العجيب.

ولا يستعمل اللفظ المشترك إلاّ مع قرينة تبيّن المراد من معانيه المشتركة، لأنّ فِي المشترك اللفظي يكون أمر المعنيين أولى من الآخر فِي ارتباطه فِي ذَلِكَ اللفظ، والسياق هُوَ الذي يعين ويحدد المعنى المراد من المعاني المشتركة بلفظ الواحد، وَهَذَا السياق لا يقوم ويعتمد على كلمة تنفرد وحدها فِي الذهن، وإنّما يقوم على تركيب وجد الارتباط والتلاحم بين إفراد الجمعة.

فيخلع على اللفظ المعنى المناسب، والقرينة التي ارتبطت مع أجزائه التي حواها السياق هي التي تعني إيجاد المقصود والمراد من الآية أو الآيات[2].

والسياق هُوَ محصلة بيان المعنى المراد من المشترك اللفظي الناتج من تطور الأصل الدلالي لكثير من ألفاظ اللغة بسبب الوضع والاستعمال المجازي.

---

(١) بلاغة الكلمة فِي التعبير القرآني: ٨٣.

(٢) جواهر البلاغة: ٣٠ .